محاضرة:

أثر الأشاعرة في النقد الأدبي

1-تعريف الأشاعرة:

الأشاعرة فرقة كلامية تنسب لأبي الحسن الأشعري المتوفى سنة (324هـ) ظهرت في القرن الرابع وما بعده. وينتهي نسب مؤسسها أبي الحسن الأشعري إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري. وهو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. وكنيته أبو الحسن. والأشعري نسبة إلى أشعر قبيلة مشهورة باليمن من ولد سبأ. ولد أبو الحسن الأشعري بالبصرة سنة ستين ومائتين من الهجرة (260هـ) وسكن بغداد وتوفي بها سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة.

عاش أبو الحسن الأشعري في بداية حياته الفكرية في كنف أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة أربعين سنة. ثم ثار على مذهب الاعتزال بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوما، يفكر ويدرس ويستخير الله تعالى حتى اطمأنّت نفسه، وأعلن البراءة من الاعتزال وخط لنفسه منهجا جديدا يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظن أنه يتفق مع أحكام العقل، وفيها اتبع طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب في إثبات الصفات السبع عن طريق العقل: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

وأبرز ما خالف به الأشاعرة أهل السنة خوضهم في صفات الله عز وجل بالتأويل الذي نهى عنه السلف خاصة الصفات الخبرية التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله صلى الله عيه وسلّم مثل صفات اليد، والعين، والنفس، والوجه، والاستواء على العرش، والنزول، والمجيء، والرضا، والغضب، والحب، والبغض ونحوها من الصفات التي ذكرها الله تعالى

في كتابه، أو صحت عن رسول الله صلى الله عيه وسلم فإنهم لم يؤمنوا بها كما جاءت وكما فعل السلف، فقد أوّلوها وصرفوا ألفاظها إلى غير ظاهرها، هروبا من شبهة التجسيم والتمثيل، وغفلوا عما يترتب على فعلهم هذا من تحريفهم لكلام الله. كما خالف الأشاعرة أهل السنة في أصول أخرى مثل: قولهم في القرآن وكلام الله، والإيمان، والقدر، حيث تأثروا بالأصول الكلامية والفلسفية في نظرتهم لهذه الأمور.

2-منهج الأشاعرة:

يمزج علماء الأشاعرة بين العقل والنقل في منهجهم، فهم يتوسطون الأمر بين السلفية التي تعتمد على النقل وبين المعتزلة التي تجعل العقل أساس مذهبها. فقد أنكر الأشاعرة على المعتزلة غلوّهم في الاعتماد على العقل، كما أنكروا على أهل السلف المبالغة في الاعتماد على النص دون سواه. من هنا حاول الأشاعرة التوفيق بين العقل والنقل.

3-أعلام الأشاعرة:

إلى جانب أبي الحسن الأشعري الذي تُنسب إليه فرقة الأشاعرة يبرز العديد من العلماء والشيوخ الذين انتموا إلى هذه الفرقة نذكر منهم:

1-الباقلاني (338هـ -402هـ): أبو بكر ابن الطيب الباقلاني الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة كان في علمه أوحد زمانه له تصانيف كثيرة في الرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة والخوارج، ومن أشهر كتبه: الإنصاف – إعجاز القرآن – كتاب التمهيد – مسائل الأصول.

2-أبو المعالي الجويني (419هـ - 478هـ): هو عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين. هو أحد أبرز علماء الدين السنة عامة والأشاعرة خاصة له مؤلفات عدة منها الشامل في أصول الدين – البرهان في أصول الفقه.

3-فخر الدين الرازي (524هـ - 606هـ): هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسن بن الحسين بن علي الرازي الملقب بابن الخطيب. عالم موسوعي في الفقه والأصول وعلم الكلام والعلوم اللغوية. له مؤلفات عدة منها: المطالب العالية -تأسيس التقديس – الأربعين في أصول الدين.

4-جهود الأشاعرة في النقد الأدبي:

ساعد المنهج الأشعري الذي يعتمد على المزاوجة بين العقل والنقل في تداخل علم الكلام مع القضايا البلاغية والنقدية، خاصة لدى علماء مثل الرازي، والآمدي. وهو ما صبغ النقد الأدبي بصبغة منطقية.

واهتم الأشاعرة بالتركيز على المعاني الكامنة وراء الألفاظ، مخالفين الفرق التي تركّز على الشكل، واللفظ. وأسّسوا لبلاغة التراكيب وتقسيمها. ورسموا منهجا للتأويل يجمع بين العقل والنقل، مما أثّر في طريقة تحليل الصور البيانية والمجاز في النقد الأدبي.

وقد اهتم الأشاعرة ببلورة تصور نقدي لنظرية النظم. فقد أرجعوا إعجاز القرآن إلى دقة التراكيب والتقديم والتأخير، والحذف. مما ترك أثره عند النقاد في ميدان نقد الشعر والنثر.

شغلت قضية الإعجاز القرآني الفكر البلاغي والنقدي العربي، وكان عبد القاهر الجرجاني من أبرز العلماء الذين اهتموا بالقضية، ويعدّ كتابه " دلائل الإعجاز" حلقة متميزة في سلسلة الدراسات التي عالجت إعجاز القرآن. فالجرجاني وقد بهره الإعجاز القرآني لم ير في دراسات السابقين ما يمكن أن يكون مقنعا ليفسر إعجازه فبعضها نظر إلى الاعجاز من زاوية خارجة عن النص القرآني، كالإخبار بالغيب أو الصرفة مثلا، وبعضها الآخر نظر إليه من زاوية ضيقة جدا من شأنها أن تفسر الإعجاز على آيات معدودات كالنظر إلى الاستعارة في القرآن...أما الجرجاني فيرى أن الإعجاز إنما يكمن في النص القرآني نفسه وفيما يسميه "النظم" على وجه الخصوص.

ويعرّف الجرجاني النظم بقوله: " اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه". ويقول في موضع آخر "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض".

ويؤكد الجرجاني أنّ الإعجاز لا يكون في ألفاظ القرآن وحدها أو في معاني الكلمات مفردة، كما لا يكون في الحركات والسكنات، ولا في الفواصل، ولا يمكن أن يكون في الاستعارة لأن

ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آيات محددة في مواضع من السور الطوال المخصوصة، من هنا كان الإعجاز في النظم والتأليف.

وإلى جانب قضية النظم توقف عبد القاهر الجرجاني عند قضايا نقدية أخرى، كالصورة الشعرية مثلا فقد تناول أثرها في نفس المتلقي، من خلال نماذج مختلفة من القرآن والشعر، ففي التشبيه مثلا رأى بأن التشبيهات التي تتسم بالغموض، والتي تحتاج للتأمل من أجل الوصول إلى المعنى وقعها في النفس أفضل من التشبيهات الواضحة ذلك " أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى". وهو رأيه في الاستعارة والكناية وفي التصوير بشكل عام.

لقد أراد الجرجاني أن يثبت أن مرد بلاغة الاستعارة والتشبيه والكناية إنما هو لسحرها ولما تصوره في مخيلة المتلقي من أمور يصعب تلمسها في الواقع والحقيقة، ومن هنا وصف ما ورد من تشبيهات في بعض الأبيات الشعرية بقوله: "وحقيقة معناه تشبيه، ولكن كنى لك عنه، وخودعت فيه، وأتيت به من طريق الخلابة في مسلك السحر ومذهب التخييل". كما أنه لم يهمل أثر التصوير والتقديم الحسي للمعنى في نفس المتلقي ومن هنا راح يشبه الشعر بالرسم، " فالاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، وبالنحت والنقر".

لقد ربط الجرجاني إذن بين فعل الشاعر وفعل الرسام باعتبارهما يشتركان في جانب التصوير. كما ربط بين أثر كل منهما على المتلقي " فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتؤنق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه....كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور، ويشكله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يُتوهم بها الجماد الصامت في صورة الحي الناطق، والموات الأخرس في قضية الفصيح المعرب".

كما توقف الجرجاني عند موسيقى الشعر من خلال حديثه عن الجناس والسجع محاولا أن يثبت أن الجمال فيهما لا يرجع إلى جرس الحروف وظاهر الوضع اللغوي وإنما إلى مسائل

معنوية من شأنها أن تقنع وترضي العقل، ويقول في ذلك:" كأن العقل يفرح بالفكرة الجديدة التي تحملها إليه كلمة جديدة، وأن الكلمات تعلم هذا من شأن العقل فتعابثه وتخاتله وتتنكر له ويلبس بعضهن ثياب بعض حتى يتوهم أن التي تتهادى بين يديه هي التي مرت آنفا".

وإلى جانب الجرجاني يبرز العديد من العلماء الأشاعرة الذين تركوا آثارا قيمة في الدرس النقدي والبلاغي، كالباقلاني الذي عالج العديد من القضايا المرتبطة بإعجاز القرآن وبسحر بلاغته. فقد توقف عند فصاحة الكلمة التي تتطلب اعتدال الحروف، وفصاحة الأسلوب الذي يشترط فيه أن يكون مستويا في صعوبته أوسهولته، وفي سلاسته أو تعقده.

كما توقف عند التشبيه والاستعارة، ولكنه يصرح بعدم جدوى دراسة الصورة الشعرية لإثبات إعجاز القرآن، ذلك أنه لا يكون التشبيه وحده معجز بنفسه ولا التجنيس معجز بنفسه، ولا المطابقة.

من هنا يتضح أن دراسات الأشاعرة وإن كان أساسها مرتبط بالقرآن الكريم من حيث إعجازه إلا أنّ أثرها امتدّ إلى ميدان الشعر، والنقد، والبلاغة من خلال القضايا التي عالجتها دراساتهم.